



الأحد 31 أغسطس 2025 02:00 م

كتب: دكتور نور الدين العلوي

دكتور نور الدين العلوي استاذ علم الاجتماع بالجامعة التونسية

يجري حديث متواتر عن مصالحة بين نظام السيسي والإخوان المسلمين؛ مواطن عربي من مكان ما لا يصدق هذه الأخبار ويراهها فسحة بين حصتي تعذيبٍ يرتكب النظام محرقةٍ يحيد بها الجماعة حتى تصل إلى حافة العدم، فيكون النظام قد حكم مرتاحا حتى إذا تأزم طرح مصالحة وتكون الجماعة منهكة؛ فتأتي صاعرة وأقصى طموحاتها أن يلتقي الأب أبناءه وأن يعالج ما ركبته من أمراض في السجون. هذه سيرة النظام العربي مع جماعات الإسلام السياسي، فلم يفلح النظام الرسمي العربي من 1952 إلى 2025 في شيء إلا في التنكيل بهذه الجماعات وبعضها سابق على وجوده نفسه والشعوب العربية الراضة تحت حكم هذا النظام لم تر نجاحات اقتصادية مبهرة ولم تحل مكاسب اجتماعية مجزية، بل تحملت كل الأوزار الناجمة عن معركة النظام (الأنظمة) مع هذه الجماعات، وقد بث في ظلها أن سبب التخلف والتبعية والفقر والجهل والمرض هي هذه الجماعات صنيعة الاستعمار وقد شاركت نخب كثيرة الأنظمة في معركتها على أمل المرور إلى ما بعدها من تنمية وازدهار فإذا هي شريك في القتل فقط؛ فلا حازت مجدا ولا سؤددا لمصلحة من تمت هذه المعارك المفتوحة؟

لنتذكر بعض التاريخ القريب

معارك تحرير وبناء دول وظهور فوق سطح الأرض بعد حقبة استعمارية غاشمة؛ فتحت آفاقا واسعة للأحلام والآمال، وقيل استقل العرب وسيشاركون في إعادة بناء العالم المخرب بالاستعمار والحروب الشاملة، فلم يمض وقت طويل حتى قُتِح النقاش العام حول المستقبل ونماذج الحكم لا شيء كان يمنع البناء على خامة الأفكار الكبرى المنتشرة بين الناس حول الديمقراطية، ففي كل المنطقة كانت هناك نخب متعلمة لديها نقاباتها وأحزابها وجرائدها ولديها أحلامها وأفكارها بنتها تحت الاستعمار نفسه وشاركت على أساسها في معارك التحرر، وكانت ترى لها حقا في المشاركة، كمواطنين في دول بنوها بدمائهم؛ فإذا الأنظمة من المغرب إلى بغداد تستبد بالسلطة دون كل الناس وبواسطة الدبابية غالبا، وكان الوقت وقت جرار فلاح في لكن الدبابية سبقت وحكمت، وبدأت تصفية الخصوم عوض "تصفية آثار الاستعمار". وهذه الجملة كانت علكة يومية على ألسنة الأنظمة وأجهزتها الدعائية التي بنتها بسرعة مذهلة وسأقت بها الشعوب إلى مصير مظلوم.

كانت أفكار اليسار فاشية في العالم، وكان خطاب التحرر الاجتماعي يجري على ألسنة نخب يسارية متعددة ومتنوعة، فبدأت الأنظمة بهم وبخطاب تكفيرهم فإذا هم أضعف من المواجهة، فتم ترويضهم وتحويلهم إلى أجهزة دعائية لمشاريع تحديث لم ير منها الناس الجرار الزراعي؛ بل رأوا الدبابية تدهسهم في حركات تصحيح متتالية انتهت اليسار بوقا للأنظمة في الوقت الذي ظهرت فيه تيارات الإسلام السياسي واشتد عودها، ففتحت معركة لم تنته بعد ويشارك فيها بحماس اليسار؛ الضحية السابقة.

كان أمرا عجا دون بلدان العالم، فالنخب العسكرية العربية (وهل يكون العسكري نخبة؟) استولت وغلقت الأبواب دون الديمقراطية باسم مواصلة معركة التحرير الشاملة، وتحرير الأرض المحتلة بالذات، لكن النتيجة التي نعيش هي أن أكثر المتكلمين من العساكر بتحرير فلسطين كانوا أشد الأنظمة تنكيلا بشعوبهم باسم فلسطين، لقد محوا مدنا كاملة من بلدانهم باسم التوازن الاستراتيجي مع العدو هل حققت هذه النخب في مقابل قمع شعوبها قدرا من التنمية الاقتصادية والاجتماعية تواري سوءاتها؟ إن النتائج معيشة وليست مروية؛ المنطقة العربية وشعوبها من أفقر شعوب الأرض، وقد بلغ الأمر بخيرة شبابها أن يختاروا الموت في البحر على أن يظلوا تحت حكم نظام بلادهم من المستفيد من هذه الأنظمة ومن يقود فعلا معركتها؟ لننظر إلى الكيان المتغطرس وهو يصل ويجول في المنطقة، يفعل بها فعل العقبان بالدجاج.

والإخوان في كل هذا؟

الحركات الإسلامية بالتعميم والإخوان بالتخصيص؛ هم أول الضحايا وأكثر المتضررين وشرعية الحاكم العربي مستمدة من تصفيتهم ١ يثبت كل نظام عربي في مكانه ويحقى من قوى الهيمنة بقدر فحشه في دم هذه الجماعات، والنموذج الأشد وضوحا هو نموذج السيسي ما بعد الربيع العربي ووصول الإخوان إلى مرحلة المشاركة في إدارة بلدهم. لو سارت الأنظمة سيرة حسنة في شعوبها وحققت نتائج تنموية مقنعة هل كان سيبقى هناك معارض إسلامي يناكف نظاما ناجحا؟ ألا تمتلك الشعوب قدرة دنيا على التمييز بين نظام ناجح وآخر فاشل؟ أليست نتائج النجاح تصل إلى جيوب الناس ويوتهم، لتقف الشعوب كلها مع الأنظمة ضد الإسلام السياسي فيموت من تلقاء نفسه أو يتحول إلى شيء مختلف، فلا تفتح الأنظمة معارك باسم الوطنية وباسم تحرير الأرض المحتلة وباسم ألف قضية غير قضايا شعوبها المعيشية؟ (أمامي صورة القذافي يدعم جيش الرب الأوغندي ويذبح الإخوان في سجن بوسليم).

سيخرج علينا متفاح مغرم بالجدل بأن الإخوان (وتوابعهم) غير قادرين على الحكم وليس لديهم بدائل تقنع الشعوب، ومن قبيل الجدل نسأل: هل جرب هؤلاء في السلطة وهل اختبرهم الناس عمليا ليكون هذا الحكم البات؟ بلى، لقد جرب هؤلاء لفترة لا تحسب في تاريخ الشعوب ووضعوا في سجلهم حماية الحريات (في المغرب وتونس ومصر)، وكان مرورهم في السلطة قصيرا وحوصروا وأوذوا في أجسادهم لكنهم تحملوا كلفة الحرية والحرية؛ بوابة كل حكم رشيد ومنها تأتي الديمقراطية ومنها تأتي التنمية ٢ ماذا لو طالت فترة حكمهم في بلدانهم؟ من يستطيع توقع نتائج حكمهم إذا كانوا بدأوا بحماية الحريات؟ (ولنبق في المنطقة العربية، فلا ندخل نموذج النجاح التركي الذي أقامه إسلاميون غير عرب بعد عقود من حكم العسكر الفاشلة).

السيسي الفضيحة الكاشفة

بديل الإخوان كان السيسي، ونتائج حكمه يشعر بها المصريون في جيوبهم وفي بيوتهم ويشعر بها العرب المناصرون لفلسطين ٣ وقد ناصرهم قوم رأوا فيه المحرر المنتظر للأرض المحتلة، حيث غزة ومعبر رفح وراءه يموت أطفال فلسطين جوعا وعطشا ٤ وإذا كان الإخوان يريدون الفخر فيكفيهم القول إن السيسي قتلهم ليحل محلهم لينجز أكبر عملية تخريب لمصر ٥ لقد جاءت غزة في طريق السيسي فضاعت فضيخته وكشفت عواره.

ويمكن أن نوسع الصورة لتفاصيل أخرى؛ بديل إخوان سوريا كان البعث ونظامه الدموي، وبديل إخوان ليبيا كان القذافي ثم حفتر، وبديل إخوان تونس كان بن علي وقيس سعيد ٦ نماذج صارخة بالفشل والخيبة المرة للشعوب.

لنختصر، كل الأنظمة العربية (جمهوريها وملكيتها) حاربت على جبهة واحدة؛ جبهة التنكيل بالإسلام السياسي، ولم تحقق نتائج تنسي الناس الإسلام السياسي، فلا اقتصاد يشبه اقتصاد كوريا، ولا حريات تشبه تركيا (على الأقل)، ولا تعليم يشبه ماليزيا، ولا صحة تشبه سنغافورة ٧ وكل هذا البلدان استقلت عن الاستعمار في نفس التاريخ، أما إذا قارنا ثروات العرب بثروات البلدان المذكورة فإن كل تاريخ الأنظمة العربية يتحول إلى فضيحة.

ولا بأس أن نذكر أن المستفيد الوحيد من هذه الأنظمة ومعاركها التي لا تنتهي إلا لتبدأ هو الكيان الصهيوني ٨ برنامج الحكم المسموح به من الصهاينة ومن يدعمهم ويحميهم هو تحقيق نتائج في معركة تصفية الإسلام السياسي، هذا هو السبب الوحيد للإبقاء على نظام عربي في مكانه بالدعم المالي والسياسي ٩ وحتى لا ننزل إلى مستوى مجادلة الشبيحة والسياسوية؛ نقول إن الإسلام السياسي هو حركة حماس ١٠ فافخروا بأنظمتكم ولا تطرحوا السؤال: لماذا لا يندثر الإسلام السياسي من تلقاء نفسه؟ هناك تغيير عميق قادم قد تجد فيه تنظيمات الإسلام السياسي مكانا، أما من قضى عمره في حربها فلا نظنه إلا ذاهبا هباء منثورا ١١ هكذا يقول الطوفان ١٢